المبحث الثاني

المفهوم الحضاري للمصطلح

لا ينفكّ الوجه الحضاري من ملازمته لسيرة المصطلح، باعتبار واضعيه، ولهذا أثـــرٌ واضحٌ في التعامل مع المصطلحات الوافدة إلى أي مجتمعٍ من مجتمعٍ مغاير، على خـــلاف حضاري معه في التعاطي مع الظواهر الكونية والانسانية ضمن اطار حضارة مبنية علـــى تلك الأسس التي تم التعاطي الفكري والاجتماعي والاقتصادي والسياسي معها.

المطلب الأول: المنظومة الاصطلاحية الإسلامية والمنظومة الاصطلاحية غير الإسلامية

إنّ مما لا شكّ فيه أنّ اللغة أداة التفاهم، ووحدة هذه اللغة طريقٌ لكلّ وحدة، واللغة ليستْ مجرّد رموز، بل إنها مرآة لشخصية الأمّة وطرائق تفكيرها. وإنّ هذه الألفاظ والتراكيب ليست مجرّد أصوات مركّبة، ولكنّها قالبٌ للفكر وقطع من تاريخ الأمة، وكلّ حرفٍ منها مستودَع ذكرى، إنها بألفاظها وأمثالها قطع حية من عادات الأمّة وتقاليدها، فمن عرف اللغة عرف الأمّة[1].

وتأخذ اللغة أهميّتها الحضارية حين تستطيع أنْ تجسّد الفكر، وأنْ تفصح عن دقائق المعاني فحينئذٍ تكون لغةً حضاريةً عريقةً[2]. ومقدرة اللغة في التعبير عن هذه الدقائق وتجسيد الفكر عن طريق مصطلحاتها ومفرداتها هي أُسُّ الظواهر الحضارية التي يفرزها تعامل الأمّة مع الكون والحياة سواءٌ بالنسبة لداخلها المتشعِّب أوبالنسبة لخارجها المنفصل عنها لغةً وفكراً وسلوكاً واعتقاداً. فقضية المصطلحات لا يمكن فهمها إلا في إطار المنظومة الحضارية التي تنتمي إليها وتعبِّر عنها أوعن العلم الذي انبثق عنه. ولعلَّ قضية المصطلحات في إطار منظومة حضارتنا الإسلامية هي من أدقِّ مسائلها وضعاً وتعريفاً وتنوّعاً. وبما أنّ الإسلام عقيدةً وشريعةً وسلوكاً كان القاعدة الأساسية والمحرِّك الأكبر لحضارتنا، لذلك فإنّ المصطلحات التي أوجدها علماؤه عن علوم ومعارف، كليات وجزئيات، حسب الظروف

---

(١) المبارك، د.مازن: **نحو وعي لغوي**. مؤسّسة الرسالة، بيروت، د.ط، ١٣٩٩هـــ/١٩٧٩م. ٤٧.

(٢) إبراهيم السامرائي: **اللغة والحضارة**. المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٧٧م.

المكانية والزمانية، حظيتْ بمزيد من الدقّة والوضوح وشكّلتْ مَعْلَماً بارزاً من معالِم الحضارة الإسلامية[1].

ولِمفهوم الحضارة خمسة أبعاد هي:

١- وجود بناءٍ عقدي - إيماني - يحدِّد طبيعة العلاقة مع عالم الغيب ومفهوم الإله سلباً أو إيجاباً.

٢- وجود بناءٍ فكريٍّ سلوكيٍّ في المجتمع يشكّل نمط القيم السائدة والأخلاقيات العامة والأعراف.

٣- وجود نمطٍ مادي يشمل المبتكرات والآلات والمؤسسات والنظم والعمارة والفنون وجميع الأبعاد المادية في الحياة.

٤- تحديد نمط العلاقة مع الكون ومسخّراته وعالم أشيائه، وقواعد التعامل مع هذه المسخَّرات وقيمها.

٥- تحديد نمط العلاقة مع الآخر، أي مع المجتمعات الإنسانية الأخرى وأسس التعامل معها وقواعده، وأسلوب إقناعها بهذا النموذج والهدف من ذلك الإقناع[2].

وعلى أساس الأبعاد أعلاها لا يمنع إطلاق لفظ الحضارة على أية حضارة توفرتْ فيها الأبعاد هذه، لكن تبقى الحضارة بهذا المفهوم الشامل بعيدة عن إضفاء أي قيمة حسنة على مفهوم الحضارة فقد تكون الحضارة بهذا المعنى سيّئة مدمرة، أو غير مناسبة للحياة البشرية، لكن هذا لا يمنع من إطلاق لفظ الحضارة عليها[3].

إذنْ فإنّ هناك منظوراً فكرياً وحضارياً للمصطلحات تحدِّده تلك الأبعاد المميِّزة لملامح أية حضارة، فكلٌّ منها بنمطها ورؤيتها وعقيدتها تحدِّد الموقف من عالم الغيب على

---

(١) محسن عبد الحميد: **تجديد الفكر الإسلامي**.المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا - الولايات المتحدة الأمريكية، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م. ٣٥.

(٢) نصر محمد عارف: **الحضارة - الثقافة - المدنية/دراسة في سيرة المصطلح ودلالة المفهوم**. ٦١.

(٣) المصدر نفسه. ٦٠.

العموم، تحدّد هذه الرؤية أطر دلالات المصطلحات مع الأبعاد الأخرى، وكذا الأخلاقيات السائدة في المجتمع والبناء الفكري والسلوكي يحدد أيضاً أطراً أخرى في الدلالات القيمية لأيّ مصطلح عليه في سيرة حياة هذه الأمة، وكذا فإنّ لكلّ حضارة قواعدَ يتعامل بها مع الكون ومسخّراته تحدد أيضاً أطراً أخرى للتعامل مع دلالات أخرى تراها الأمّة حاملة الحضارة، والنمط المادية في المبتكرات وتسمياتها عبر اصطلاحات مستوحاة من مضامنيها الفكرية والحضارية في أغلب الأحيان، ورؤية أية حضارة للآخر، أي من لا يحمل نمطها الحضاري في الحياة، تستوجب منها المحافظة على شخصيتها لإبراز ملامحها الحضارية من خلال تسمياتها ومصطلحاتها محاولة التغلب على النمط الثقافي داخل حضارة المقابل[1].

وهنا تبرز الرسالة الحضارية للمصطلحات، في بناء منظومة متكاملة من مضامين وأفكار في قوالب محددة الدلالات، ألا وهي المصطلحات التي تحمل رسالة المعنى، وتبرزها على نمط يتوافق مع التوجه الثقافي للأمة مع أبعادها الحضارية المتكاملة.

هنا يبرز دور المصطلحات وخصوصيّتها الحضارية في ما تحمل من المضامين التي هي نقطة التراع مع المذهبيات والرؤى خارج نطاق حضارتنا[2]. فقضيّة المصطلحات تبرز في كل صراع، وتحتلّ أهميّة خاصة في الإعلام المتصل به، وأيّ خطأٍ في التعامل معها تكون له نتائج وخيمة. والصراع هنا قد يكون حضارياً عند الاحتكاك بين حضارتين وقد يكون سياسياً، وواضح أنّ الطرف الآخر في كلّ هذه الصراعات يحاول أنْ يفرض مصطلحاته ليلوِّن الحقائق على طريقته[3].

---

(١) المصدر نفسه. ٦١.

(٢) محمد عمارة: **إشكالية التحيّز/ رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد: الخصوصيّة الحضارية للمصطلحات**. تحرير: د.عبدالوهاب المسيري. المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن - فيرجينيا - الولايات المتحدة الأمريكية، ط٢، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م. الجزء الأول. ١٢٦.

(٣) أحمد صدقي الدجاني: **إشكالية التحيّز/ رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد: التحيّز في المصطلح**. تحرير: د. عبد الوهاب المسيري. المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن -فيرجينيا - الولايات المتحدة الأمريكية، ط٢، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م. الجزء الأول، ١٤٥.

إنّ أيّ مصطلحٍ من المصطلحات يعبّر بالضرورة عن سياقه الحضاري الذي نجم عنه وولد فيه، فبما أنّ المصطلح يتكون من دالٍّ ومدلول، فارتباط الدالّ بسياقه الحضاري الذي نشأ فيه ومحدوديّة حقله الدلالي، ومن ثم قصوره عن الإخبار عن مدلوله إنْ نُقل إلى سياقٍ حضاريٍّ جديد، يصبح الدالّ في هذه الحالة مصدراً لدلالات لا توجد في الواقع، وستاراً يخبِّيء جوانب من المدلول[1].

فكثيرٌ من المصطلحات قد تكون مستقرةً في سياقها التاريخي والحضاري وتَفِي بالغرض الذي صكَّت من أجله لدرجة معقولة، لكنّها تصبح لا معنى لها تقريباً، بل تصبح أداة تضليلٍ، حينما تنقل إلى سياقٍ آخر؛ لأنَّ صاحب المصطلح يحاول دائماً أن يضعَ نفسه في المركز، باعتباره صاحب زاوية الرؤية، ويعيد ترتيب كل التفاصيل حسْبَما يتفق ورؤيته[2]، وهذا واضحٌ في مصطلحين شائعين مثل (الحرب العالمية الأولى) و(الحرب العالمية الثانية)، هاتان الحربان كانتا عالميتين من منظورِ الإنسان الأوروبي وحسب، فظنّ أنّ أوروبا هي العالم (أما ماعدا ذلك فأسواق ومستعمرات)، وكذا مصطلح (الرأي العام العالمي) وتعنى (الرأي العام الغربي) وهكذا[3].

فالإسلام دينٌ مستقل ومنفصلٌ مختلف، له ذاتيته الخاصة وطابعه المفرد، وهو لا يمكن أنْ ينصهر، ولا أنْ يحتوي ولا أنْ يكون تابعاً للحضارات والأمم، أومسوِّغاً للأوضاع التي تأخذ بها الأقوام في تجاربها الخاصّة أو فكرها البشري؛ لأنّه ربّانيّ المصدر شموليّ الأفق إنسانيّ التوجه عالمي الخطاب إيجابيّ المسلك واقعيّ النظرة ثابت المنهج متوازن الحكم،

---

(١) عبد الوهاب المسيري: **إشكالية التحيّز/ رؤية معرفية ودعوة الاجتهاد: هاتان تفاحتان حمراوان: دراسة في التحيز وعلاقة الدال بالمدلول**. الجزء الأول، ١٦٨. وانظر: أحمد محمد الدغشي: إشكالية المصطلحات من المنظور الحضاري. ١٣٠.

(٢) عبد الوهاب المسيري: **إشكالية التحيّز/ رؤية معرفية ودعوة الاجتهاد: هاتان تفاحتان حمراوان: دراسة في التحيز وعلاقة الدال بالمدلول**، ١٧٠ وما بعدها.

(٣) المصدر نفسه، ١٧٢. ومحمد عمارة: **معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام**. ٣-١٣.

يتخذ التوحيد مصدراً للمعرفة، واضح المعنى فلا يصلح فيه التلفيق أوالاختيار أوالانتقاء[1].

أمّا الفكر الغربيّ مثلاً للفكر غير الإسلامي، فإنّه يقوم على مصادر ثلاثة:

١- الأدب اليوناني. ٢- الفكر الروماني. ٣- وتفسيرات المسيحية كما عرّفها الغرب[2].

أي أنّ منطلقات أفكاره، وطريقة تفكيره، وصياغة مصطلحاته يتمّ حسب مصادره الفكرية عبر قرونٍ غابرة، فالشخص الغربيّ حينما يتحدث عن الديمقراطية أوالثيوقراطية، أو ما شابه ذلك فإنّه يستخدم هذه المصطلحات وفي ذهنه أحداث الغرب التي صنعها في حاضره وماضيه كلّه، ففي حدود هذه التصوّرات التاريخية لا تكون هذه المنطلقات التي ذكرناها فحسب، بل تصبح سهلة الفهم معرفة المقاصد. ومن هذه المنطلقات التي ذكرناها، يتشكّل لدينا منظومتان اصطلاحيّتان مختلفتا المصدر والتوجه الفكريّ والحضاريّ، هما (المنظومة الاصطلاحيّة الإسلاميّة) و(المنظومة الاصطلاحيّة غير الإسلاميّة)[3].

المطلب الثاني: التأصيل في التعامل مع المصطلحات

إنّ محاولة التأصيل في التعامل مع المصطلحات، يهدف إلى جعل المصطلحات التي هي رموز ومفاهيم للعلوم والأفكار نقطة تحوّل في فهم الأمّة للأمور حسب ما يقتضيه إيمانها وسيرورتها التاريخيّة، ونمطها الحضاريّ، وأصالة ثقافتها، وهنا يبرز دور اللغة الذي يمثّل أساس النشاط الثقافي في أيّ أمةٍ من الأمم؛ لأنّها تعتبر أقرب الأدلّة وأقواها عند

---

(١) أنور الجندي: **مَعْلَمَة الإسلام**. المجموعة الأولى. ١٧. وسيد قطب: **خصائص التصوّر الإسلامي ومقوماته**. دار الشروق، القاهرة، الطبعة الشرعية الرابعة، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م. ٤٧. والشيخ يوسف القرضاوي: **الخصائص العامّة للإسلام**. مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، د.ط، ١٤١٩هـ /١٩٩٩م.

(٢) أنور الجندي: **مَعْلَمَة الإسلام**. المجموعة الثانية، ٢٧٩. وسيد قطب: **خصائص التصوّر الإسلامي ومقوماته**. ١٣ وما بعدها

ومحمد محمد حسين: **الإسلام والحضارة الغربية**. دار الرسالة، مكة المكرمة، ط٩، ١٤١٣هـ /١٩٩٣م. ١٨١.

(٣) أنور الجندي: **مَعْلَمَة الإسلام**. المجموعة الثانية، ٣٨٣.

استقصاء الملامح الخاصّة لأيّ مجتمع[1]. وبما أنّ المصطلحات تعتبر من الأوجه الأساسيّة في أيّ لغة، فإنّ هذه اللغة تعتمد اعتماداً أساساً على المصطلح التراث- ما توارثناه من أجدادنا -؛ لذا «فمن الضروريّ التوحُّد حول المصطلح التراثي - أي القديم - وتحويله من جديد إلى مفتاح للعلوم بضبطه في مجالات ثلاثة أساسية ومؤثرة هي:

المجال اللغوي والمجال الشرعي والمجال الاصطلاحي (المتأخر عن المجالين السابقين).

كل ذلك تعريفاً واستعمالاً وتداولاً، وتأصيل البناء المصطلحيّ للأمّة على هذا الأساس»[2]؛ وذلك لكي تخرج ونخرج لغتنا وخطابنا الإسلامي من المحاولات التي ترمي إلى الإقرار بالإزدواج اللغوية بين لغة العلم ولغة الدين، بحيث تخرج لغة الدين (وهي العربية) من المدارس والمعاهد الجامعات ومراكز البحوث والمكتبات وتتروي في المساجد والمعابد، شأنها شأن اللغة السريانية القديمة، التي باتتْ لا تخرج عن أصواتٍ يردّدها الكاهن وقد يفهمها أو لايفهمها هو والمستمعون من حوله. وهذا ليس ذنب اللغة وقدرتها على استيعاب العلوم والفنون وإبداع المصطلحات، وإنما ذنب الأمّة التي تتخاذل وتتخلف وتعجز عن الامتداد والنمو، الأمر الذي انتهى بها إلى العيش على موائد (الآخر)[3].

إذنْ فالحاجة ماسّة إلى التأصيل في كيفية التعامل مع المصطلحات عامّةً، هذا التأصيل النابع من الثوابت، ثوابت الأمّة؛ لأنّ التأصيل من غير الثوابت لا فائدة منه؛ لأنّ مآله التغيُّر والتبدُّل. فثوابت الأمّة الربانية المتمثلة بمصادر الوحي هي التي تستطيع أن تمثِّل القواعد الأساسيّة في التعامل مع المصطلحات والحكم عليها، أي يجب أنْ يكون المعرفة الموجَّهة. وهي المعرفة الربانية المعروفة في الإسلام وعند المسلمين- هي التي تحدد نمط التعامل مع المصطلحات التي تنشأ في الأمّة، أو التي ترِد على الأمّة من خارج إطارها الثقافي والحضاريّ والعقديّ أيضاً سواء كانت هذه المصطلحات تعبّر عن انتاج علمي تجريبي، أو كان في مجال العلوم الإنسانية[4].

---

(١) تمّام حسّان: **اللغة بين المعياريّة والوصفيّة**. ١٥.

(٢) سعيد شبار: **المصطلح خيارٌ لغويّ.. وسمةٌ حضارية**. ١١٣.

(٣) عمر عبيد حسنة: **الخطاب الغائب**. المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م. ٢٨.

(٤) سعيد شبار: **المصطلح خيار لغوي.. وسمة حضارية**. ١٠٧.

إنّ انتاجنا وصكّنا للمصطلحات التي تعبّر عن الجانب المعرفي والحضاري لأمتنا على العموم، هذا الانتاج ظاهر الضوابط والأصول باعتبار أنّنا نلتزم بقواعد أصولنا ومنطلقاتنا العقدية والفكرية والحضارية والثقافية، المتمثلة بالقرآن الكريم والسنة النبوية، باعتبارهما الوحي المنـــزّل الذي يحكم العقول والأذواق والاتجاهات الفكرية، ويغذيها بالقواعد والضوابط في شتّى مجالات الحياة دون استثناء.

◈ منهج في التأصيل:

إنْ تتبّعنا المصطلحات الموجودة في عالمنا الإسلامي والعربي (كالعلمانية والليبرالية والديمقراطية...)، نستطيع أن نرى بوضوح ذلك الالتباس والإشكال في فهم هذه المصطلحات، فهي إذنْ بحاجة إلى تأصيل وإعادة تعريفها إسلاميّاً ضمن إطار التجديد في قراءة هذه المصطلحات، وحسب منهج متمثل بالخطوات التالية:

١- البحث عن دلالات المفهوم في لغته الأصلية التي صُكّ منها وحمل بدلالاتها ومعانيها، ومن ثمّ يتمّ الوصول إلى تجريدٍ للمفهوم يعبِّر عن حقيقته وجوهره وماهيته بعيداً عن أيّ التباسٍ بخبراتٍ أو دلالاتٍ لحقتْ به في تطوره.

٢- تتبع تطور المفهوم في البيئة الأصليّة وكيف تمّ سحبه من معانيه اللغوية إلى معانٍ اصطلاحية معيّنة. وهل هناك اتساق بين الاثنين أم أنّ المفهوم تجاوز تماماً الدلالات اللغوية وحُمِّل بدلالات أخرى.

٣- التركيز على واقعة الترجمة واختيار مقابل عربيّ- أو أيّة لغة إسلامية- لهذا المفهوم، وهل تمّتْ ترجمةً للمعاني والدلالات أم للفظ في معناه الظاهر فقط، وذلك من خلال تجريد دلالات اللفظ في لغته الأصيلة وتجريد الدلالات العربية للفظ والمقابلة بينهما في صورتها المجرّدة بعيداً عن التعريفات والماصدقات[1].

---

(١) الماصدقات: - هو مجموع الموضوعات التي يدل عليها المعنى، أو مجموع الأفراد الداخلين تحت صنف، على عكس المفهوم الذي يدلّ على مجموع الصفات المشتركة بين الأفراد. والماصدق والمفهوم متناسبان عكسيّاً، كلما ازداد الماصدق نقص المفهوم، والعكس بالعكس.انظر: جميل صليبا: **المعجم الفلسفي**. منشورات ذوي القربى، قم- إيران، الطبيعة الأولى، ١٣٨٥ هجري شمسي، المجلد الثاني. ٣١١.

٤- تتبع تطور المفهوم في الفكر الإسلامي التالي لترجمته ومدى التغيير الذي لحِق باللفظ، وهل ظلّ اللفظ العربي محافظاً على دلالات المفهوم الأجنبي أم الدلالات الأصيلة له في اللغة العربية - باعتبارها أمّ اللغات الإسلامية - أم أحدث مزيجاً منهما؟

٥- العودة للدلالات العربية الأصيلة للمفهوم العربي - والإسلامي - الذي وضع كمقابل للمفهوم الأجنبي، وتوضيح المعاني والدلالات الحقيقية له ومقارنتها بالدلالات المعاصرة لهذا المفهوم التي هي دلالات المفهوم الأجنبي نفسها، وذلك تمهيداً لمحاولة إعادة تعريف المفهوم عربياً - إسلامياً -، أوتنقيته مما لحِقَهُ من ظلال المفهوم الأجنبي، وصولاً إلى المعاني والدلالات الأصيلة للمفهوم العربي[1].

وطبقاً للضوابط السابقة، فإنّنا «إذا أردْنا أنْ نغيّر أوضاعنا الحضارية في ضوء المذهبيّة الإسلامية، فلا بدّ أنْ تكون مصطلحاتنا -ولاسيّما الحضارية منها - تعبِّر تعبيراً دقيقاً عن حقائقها وطبيعتها ووحدتها الداخلية ومنظومتها المتميّزة؛ لأنّ في ذلك الصفاء ووضوح الرؤية واستقامة المنهج؛ ولأنّ التغيير الحضاريّ في أيّ مجتمعٍ إذا قاده التلفيق بين مجموعاتٍ اصطلاحية، تنتمي إلى منظوماتٍ حضارية مختلفة فإنّ التغيير يفقد التخطيط الموجّه ويدخل في إطار الفوضى في الفكر والممارسة، فيؤثِّر ذلك في كيان المجتمع كله، وفوضى الاصطلاحات من جهة أخرى دليل عدم الأصالة، وبرهان عدم وجدان الذات، وفقدان للخصوصيّة الحضاريّة»[2].

وهنا يجب عدم إغفال الجانب المعرفيّ ضمن حدود علم المصطلح - الذي سبق تعريفه- بكل حدوده وضوابطه باعتباره أحدث أفرع علم اللغة التطبيقي والذي يتناول الأسس

---

(١) نصر محمد عارف: "الحضارة - الثقافة - المدينة" دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم. ٦٣ و٦٤. وعلي القاسمي: مقدمة في علم المصطلح. ٣٥ و١٠٦.

(٢) محسن عبدالحميد: **المذهبيّة الإسلامية والتغيير الحضاري**. مطابع وزارة التربية، العراق، ط٤، ١٤٢٠هـ. ٨٩. وانظر: زيّاد، د. صالح غرم الله: **المصطلح الأدبي بين غناه بالمعرفة وغناه بالتاريخ**. ١٠٠.

العلمية لوضع المصطلحات وتوحيدها. ومعنى هذا أنّ وضع المصطلحات لم يعد -في ضوء المعايير المعاصرة- يتمّ على أساس البحث المفرد في كلّ مصطلحٍ على حِدة، كما هو الحال في جهودٍ كثيرة. فهناك معايير تنبع من علم اللغة ومن المنطق ومن الفكر والدراسات والبحوث الدينية والسياسية في مجال التنظير(١).

◈ المصطلحات التراثية والتأصيل المصطلحي:

لا بدّ للباحث في مجال المصطلحات أنْ لا يهملَ جانباً مهمّاً من النشاط المصطلحي في التراث الإسلامي عموماً؛ لأنّ اللغة العربية -بخاصة- لها تراث فكريٍّ عريق على امتداد مساحات واسعة على سطح الأرض ويمتدّ عبر حقبة طويلة في تاريخ الحضارة الإنسانية، ويزخر ببحر من المنظومات المفهومية في شتّى حقول المعرفة ويموج بالمصطلحات الحضارية والعلمية التي تعبِّر عن تلك المفاهيم بدقة وحيوية. وقد تضافرتْ أربعة عوامل رئيسة على تمكين اللغة العربية من حيازة هذا التراث المصطلحي العملاق وهي:

١- العامل التاريخي: طول عمر اللغة العربية

باعتبارها أطول اللغات الحيّة عمراً لفظاً وفهماً، بحيث نستطيع استيعابها دون جهد وعناء لنصوصٍ قد تصل إلى ألفَيْ عام فهذا العامل الزمني الكمِّيّ، منح العربية تراكماً معرفيّاً وذخيرةً مصطلحيةً هائلة(٢).

٢- العامل الجغرافي: اتساع رقعة العربية

فحَمْل الرسالة الإسلامية إلى مشارق الأرض ومغاربها جعل العرب يحتكّون ويتصلون بمجتمعات ذات ثقافات متباينة، فاضطرّتْ أنْ تصطلح على كلماتٍ لمفاهيم وتصوراتٍ جديدة لم تألفْها، وأشياءٍ وذوات لم تألفْها؛ للتعبير عنها وتسميتها، فأدّى بذلك إلى إغنائها بالتراث المصطلحيّ الحضاريّ المتنوِّع(٣).

---

(١) علي القاسمي: **مقدمة في علم المصطلح**. ١٩.

(٢) علي القاسمي: **علم المصطلح/ أسسه النظرية وتطبيقاته العملية**. ٢٠٥.

(٣) **المصدر نفسه**. ٢٠٦.

٣- العامل العلمي: الريادة العلمية العربية

فاضطلاع المسلمين عامةً - والعرب على الخصوص - بالريادة العلمية والفكرية لفترة طويلة، وما صنّفوا من مؤلّفات أدبيّة، وما أجروه من أبحاث علميّة، وما اخترعوه من تقنيّات مبتكرة وما ترجموه من علوم الأمم الأخرى، جعلتْ اللغة العربية وعاءً لتلك المواد، فزخرتْ بمصطلحات العلوم والفنون والآدب. وأضحتْ آنذاك أغنى اللغات مصطلحاً، كما كانتْ أثراها معجماً وأبدعها نحواً[١].

٤- العامل الديني: ضمن المنظومة الاصطلاحية الإسلامية:

فقد أضاف الإسلام إلى التراث العربيّ الضخم في المصطلحات، مصطلحات أخرى كانت المنطلق الأساس في التحوّل الدلالي لكثير من الكلمات العربية، واختصاصها بدلالات وسياقات محدودة قرآنية وحديثية تجمعها المذهبيّة الإسلامية في الكون والحياة وتأخذ مَعينها من مَنْبع الوحي، فانطلقت المصطلحات الإسلامية تنير طريق الكلمات والمعاني إلى ما يوافق سياقها ومتلازماتها[٢].

◈ مظاهر التأصيل في المصطلحات التراثية:

يمكن أنْ نلخِّص أهم مظاهر التأصيل وفوائد استخدام المصطلحات التراثيّة في ست نقاط هي:

١- ربط حاضر اللغة بماضيها.

٢- توفير الجهد في البحث عن مصطلحات جديدة، وما يعترض طريقه من صِعاب وعوائق من جانب وسيلة الاصطلاح ودلالته اللغوية والفكرية والحضارية وغيرها من الصِعاب.

٣- سلامة المصطلح التراثيّ وسهولته؛ لأنّه بطبيعة الحال جاءنا من عصرٍ أفصح لساناً وأبلغ كلمةً.

---

(١) المصدر السابق نفسه. ومحمود فهمي حجازي: **الأسس اللغوية لعلم المصطلح**. ٢٢٤.

(٢) عودة خليل أبو عودة: **التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن**. مكتبة المنار، الزرقاء- الأردن، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م. ١٧وما بعدها.

٤- تجنب مخاطر الاقتراض اللغوي، وما يصيب الدلالات اللغوية والدلالات السياقية من خللٍ يؤدِّي إلى أخطاءٍ حضارية وفكرية. وهذا ما سنتحدث عنه ضمن إشكاليّات المصطلح.

٥- الإسهام في توحيد المصطلح العلميّ والمعرفيّ، بعيداً عن التشرذم في البحوث الاصطلاحية[١].

٦- ضَبْط قائمة المصطلحات التراثيّة، كل مصطلحٍ ضمن العلم الذي ينتمي إليه. وهذا يتطلب جهداً كبيراً وإخلاصاً تامّاً، باعتباره عملاً يخدم لغة وثقافة وحضارة للأمّة[٢].

ولتحقيق هذه الفوائد يجب حصر مصادر المصطلحات التراثيّة، وهي مجملة كالتالي:

١- المعاجم التراثية:- وهي عامّة في كلّ مجالات الكلام والعلوم، أو معاجم موضوعية في موضوعٍ من المواضيع أوعلمٍ من العلوم. وقد اشتملت المعاجم عامةً على القدر الكبير من المصطلحات التي نستفيد منها فِعلاً في حياتنا اليومية[٣].

٢- الشعر: - فالشاعر إضافةً إلى تعبيره عن أحاسيسه وعواطفه وانفعالاته، صوّر مجتمعه بعاداته وتقاليده ومعتقداته ووصف بيئته وأجوائه، وكلّ ما رآه دوَّنه في قصيدته بواسطة كلمات ومصطلحات عصره؛ فهو يشكِّل مصدراً مهمّاً للمصطلحات.

٣- الكتب العلمية:- التي انتشرت انتشاراً واسعاً خاصّةً في عصور النهضة والتقدم العلميّ، فاحتوتْ على طائفة كبيرة من المصطلحات الأساسيّة في العلوم.

---

(١) علي القاسمي: **علم المصطلح/ أسسه النظرية وتطبيقاته العملية**. ٢٠٨.

(٢) محمود فهمي حجازي: **الأسس اللغويّة لعلم المصطلح**. ٢٢٥.

(٣) ممدوح محمد خسارة: **علم المصطلح وطرائق وضع المصطلحات في العربية**. ٢٦.

باعتبار أنّ "المعجم ليس قائمة مرتَّبة بكلمات لغة من اللغات فحسب، بل سجل موثّق بالسيرة الذاتية لكل كلمة؛ فوراء كل كلمة في المعجم حكاية تحكى. تتضمّن السيرة الذاتية للكلمة تاريخها منذ أول استخدام موثّق لها، وما مرت به من تطوّرات في المبنى والمعنى حتى أصبحت على هيئتها التي نراها اليوم" انظر: البطل، د. محمد: **مدخل إلى علم المعاجم**. ٣٨.

٤- التراث المنطوق:- الذى توارثه المهنيون والحرفيّون والصنّاع، من مصطلحات مهنهم وصناعاتهم وأدواتهم ومعدّاتهم، وقدْ تتحوّل هذه المصطلحات من سياقها التجريديّ إلى سياقاتٍ فكريّة، باستخدام المجاز، أي التجوّز في إطلاقها على انفعالاتٍ إنسانيّةٍ[١].

لكن تبقى المصطلحات التراثية تسدّ جانباً محدداً من الجهاز الاصطلاح الإسلامي؛ لأننا لسنا بصدد استنساخ مصطلحي بقدر ما هو عملية إبداع وإنشاء وتوظيف بما يناسب التغيير الزماني والحضاري طبقاً لما يواجهه الأمة من تحديات[٢].

المطلب الثالث: التمايز بين المصطلحات خطوة للمفاصلة بين الحضارات

إن مما لا شكّ فيه أنّ لكل أمّة خطابها الحضاري ورؤيتها تتجلى في ذلك الخطاب، تعرف الأمم والحضارات في إطار خطابها نحو الآخرين من الحضارات والامم.

والخطاب الحضاريّ يستند في صياغته ورؤيته المعرفية على منظومة من المصطلحات الحضارية والفكرية والثقافية النابعة من أصالة هذه الأمّة وحضارتها، ولهذه المصطلحات سيرة ذاتية تراكميّة معرفيّة، فهي ذاتية باعتبار نشؤها في حدودِ بيئةٍ معينةٍ، وتراكميّة باعتبار التغييرات الحاصلة في دلالاتها وتراكم التجارب الثقافيّة عليها من تخصيص وتعميم وتضييق واتساع وهكذا، وهي معرفيّة؛ لأنّها كانت قناة تواصلٍ وإيصالٍ معرفيّ بين أبناء الأمّة والحضارة الواحدة[٣].

«ومن هنا كان لا بدّ من التنبيه إلى ضرورة المحافظة على المصطلحات في الأمّة، والاحتفاظ بمدلولاتها، والعمل على وضوح هذه المدلولات في ذهن الجيل؛ لأنّ هذه المصطلحات هي نقاط الارتكاز الحضاريّة والمعالم الفكرية التي تحدِّد هويَّة الأمّة بمالها من رصيدٍ نفسيّ ودلالات فكرية، وتطبيقات تاريخية مأمونة.

---

(١) علي القاسمي: **علم المصطلح/ أسسه النظرية وتطبيقاته العملية**. ٢١٧ وما بعدها.
وممدوح محمد خسارة: **علم المصطلح وطرائق وضع المصطلحات في العربية**. ١٠٨.

(٢) محمد عبد الله زرمان: **الخطاب الإسلامي المعاصر وإشكالية المنظومة المصطلحية**. ٨٢.

(٣) مازن المبارك: **نحو وعي لغويّ**. ١٠٨ ومابعدها. وإبراهيم السامرائي: **اللغة والحضارة**. ٥٥.

إنّها أوعية النقل الثقافي وأقنية التواصل الحضاريّ، وعدم تحديدها وعدم وضوحها يؤدِّيان إلى لون من التسطيح الخطير في الشخصيّة المسلمة والتقطيع لصورة تواصلها الحضاري»[1].

إنّ كلامنا حول المصطلح والتمايز الحضاريّ المؤدِّي لا محالة إلى المفاصلة بين الحضارة الربانية التي تعتمد الوحي مصدراً لمفاهيمها، وبين حضارة وضعيَّة تأسستْ على رؤىً بشريّة تعتمد على العقل كأقصى مصادر المعرفة، وما يشوبه من تهافت ونواقص تظهر ضعف العنصر البشري قدرةً وخبرةً ودقّةً إذا ما قورن -إنْ صحّ المقارنة- بالدّين الكامل. فكان لا بدّ للمسلم المؤمِن بالإله الواحد المعبود الخالق أنْ يستمدّ مفاهيمه حول كل حياته وعقيدته ورؤيته وفكره ومعرفته من مصدرها التأسيسي الأصيل واستحضارها واقعاً من الوحي (القرآن الكريم والسنة الصحيحة)، بحيث يجعل القرآن الكريم خُلُقاً حركيّاً يسير في الأرض حيث تتأكد الرؤيّة والمذهبية الإسلامية واقعاً وممارسةً، ومن ثم فإنّ القرآن المصدر الأساسيّ لبناء المفاهيم الأساسيّة الإسلاميّة كتاب رسالة يتجه إلى بناء الشخصيّة الإنسانيّة على أساس من مفاهيمه الأساسية، والتدبر الأمثل للقرآن الكريم يستوجب توجيه مفاهيمه القرآنية، وتصحيح المفاهيم المغلوطة وتوجيهها وجهة إسلامية متخطّيةً حاجز القوالب المتمثِّل بالمصطلحات والمفردات غير الإسلامية[2].

ومن أعظم الهجران للقرآن الكريم -وبالتالي لمفسِّره ومبيِّنه (السنة النبوية)- محاولة تنحية القرآن الكريم عن كونه مصدراً تأسيسيّاً في بناء المفاهيم. ومتى انحرف الفكر والعقل عن جعل القرآن الكريم مصدراً كاملاً للمعرفة والفكر وانطلق يبحث عن ضالّته في الفكر والعقل البشريين حسب ما وصلا إليه في المسيرة التاريخيّة للعقل البشريّ، حينذاك تبدأ

---

(١) محسن عبدالحميد: **المذهبيّة الإسلامية والتغيير الحضاري**. ٩. وعمر عبيد حسنة: **الخطاب الغائب**. ١٠.

(٢) سيف الدين عبد الفتاح: **بناء المفاهيم الإسلامية**. شركة نهضة مصر، القاهر، ط١، ٢٠٠٣م. ٦١. وكذلك: محمد قطب: **مفاهيم ينبغي أن تصحّح**، دار الشروق، القاهرة، ط١٠، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م. ١٣ وما بعدها.

مرحلة الأزمة الفكريّة والالتباس الفكري، كمن ارتضى بضيق الدنيا بديلاً عن سعة الدنيا والآخرة والآخرة خيرٌ وأبقى[1].

هنا يبرز التمايز الحاصل بين مصطلحات المنظومة الفكرية والعقدية الإسلامية والمصطلحات غير الإسلامية، باعتبار أنّ مصادر المعرفة والفكر عند المسلمين هي الوحي والوجود، أما مصادر المعرفة في المصادر الغربيّة فهي الوجود وحده[2]، وخاصةً إذا علمنا أن المذهبيّة الإسلامية ارتكزت في حركتها في الكون والحياة على قوالب وألفاظ لغة خاصة بها وهي اللغة العربية، مما يجعلها تتمتّع بالخصوصيّة أكثر وأقوى إذا ما فقدت خاصيّة اللغة الحاملة للفكر والمعرفة الخاصة بمنظومتها الحضارية والفكرية، فاللغة العربية هي التي تُعبَّر بها عن المفاهيم الإسلامية ضمن فهمنا لنصوص القرآن الكريم والأحاديث النبويّة اللَذَيْن يحملان في قوالب وألفاظ ومصطلحات اللغة العربية حيث إنّها لسان النبوّة الخاتمة، وهي لغة عالمية باعتبار عالمية الرسالة التي تعبِّر عنها، فأصبحتْ هي لغة الدين والعلم والتراث والتاريخ

---

(١) طه جابر العلواني: **الأزمة الفكرية المعاصرة**. ١٨.

(٢) المصدر نفسه. ١٩.

فتعريف (اليونسكو) للمعرفة هي: (أنّ المعرفة كل معلوم خاضع للحسّ والتجربة).

والتعريف الإسلامي هو: (أنّ المعرفة كل معلوم دلّ عليه الوحي والحسّ والتجربة).

ويقول د. محمد عمارة في التفاتة مهمة: -

"فإذا كان إغفال هذا التمايز القائم بين مضامين المصطلح الواحد في مذاهب وعلوم الحضارة الواحدة يؤدّي حتماً إلى خلط مذهبي في إطار ذات الحضارة.. فإنّ إغفال هذا التمايز، عندما تعبِّر المضامين والمعاني عن التمايز الحضاريّ للحضارات المختلفة، هو باب واسع للخلط والتشويه المعرفيّ، يجعل من القاموس والذي لاينبّه على تمايز مضامين المصطلح الواحد في الحضارات المتمايزة: أدة تزييف لوعي أبناء الحضارة المتلقية لهذا القاموس.. تزييف لوعيهم بالمضامين المتميّزة لهذه المصطلحات في حضارتهم وأداة تبعيّة وإلحاق لهم بالحضارة التي أحلّ هذا القاموس مفاهيمها لهذه المصطلحات محلّ المفاهيم المتميّزة لهذه المصطلحات في حضارتهم التي إليها ينتسبون!". انظر: محمد عمارة: **إشكاليّة التحيّز/ رؤية معرفيّة ودعوة للاجتهاد: الخصوصيّة الحضاريّة للمصطلحات**. الجزء الاول، ١٢٧.

والحضارة، ومفتاح المعرفة، وسبيل فهم الخطاب الإلهي، والتعرّف على مراد الله للإنسان، فكانتْ من أهم العوامل المكوّنة للأمّة المسلمة الحاملة لثقافتها، المعبِّرة عن قيمها، المبيِّنة لكيانها، الراسمة لملامح شخصيّتها، المحدِّدة لهويّتها الحضاريّة، المكوِّنة لنسيجها الذهني المستوعبة لأحاسيسها، الوعاء لمسيرتها[1]، وهي بذلك - أي اللغة العربية- تشكّل مفتاحاً لفهم المعاني القرآنية والمفاهيم الربّانية فمن يدرك العربيّة يدرك دلالات الألفاظ القرآنية وتفسير الآيات وإعجاز النصّ القرآنيّ؛ لذلك فإنّ العربيّة - لغة التنزيل- تختلف وتمتاز من هذا الوجه عن سائر اللغات الأخرى، ومقتضيات ذلك الحفاظ عليها وعلى مصطلحاتها - التي هي قوالب للمفاهيم الإسلامية عامةً- وحماية دلالات ألفاظها.. وهي ميّزة لم تتوفر لأيّة لغة من لغات العالم، ولايمكن استبدالها بأيّ لغةٍ من لغات العالم تعبيراً أو مصطلحاً؛ لأنّ التنزيل والوحي إنما أتتْ بلغة العرب والمعهود من كلامهم[2].

إذنْ كانت هذه الأمور الفيصل بين مصطلحاتنا الإسلامية ومصطلحات غيرنا غير الإسلاميّة، تعبيراً عن الفرق بين ما هو وحيٌ إلهيّ وبين ما هو تجربة بشرية محضة. وهذا التمايز يفرض نفسه حين نجري مقارنة بدهية بسيطة بين أبرز لفظ عند الأمم جميعاً وهو لفظة (الدين)، فالدين كمفهوم مباين لمفهومه عند أهل الكتاب (اليهود والنصارى)، بما يحمل من معاني التوحيد والطاعة عند المسلمين خلافاً لعقيدة التثليث عند النصارى والتفريد عند اليهود، فهذه المفاهيم هي المحرِّكة والمحدِّدة الأساسية في معنى (الدين)[3].

إذن فما أنتجه الإسلام من مصطلحات ومفردات تعبِّر عن الإرادة الإلهيّة في القرآن الكريم والسنة النبوية، أو ما اعتمده المسلمون من مصطلحات اصطلحوا عليها ضمن الجهود

---

(١) عمر عبيد حسنة: **الخطاب الغائب**. المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م. ١٥.

(٢) المصدر نفسه، ٢١. وانظر كذلك: محمود محمد شاكر: **أباطيل وأسمار**. مطبعة المدني، القاهرة، د.ط، د.س، ٢٤٠

(٣) محمود محمد شاكر: **أباطيل وأسمار**. ٥١٨. وأبو الأعلى المودودي: **المصطلحات الأربعة**. دار إحسان، طهران، د.ط، ١٣٧٢هجري شمسي. ١٠٥.

الفكرية والاستنباطات العقلية من الكتاب والسنة، وهذه النتاجات تعبِّر عن إرادة الوحي، على الأقل من الجانب المنهجيّ في وضع المصطلح ودلالاته ومفاهيمه وأنساقه الإسلامية وأنماطه الحضارية، مختلفاً بذلك ومتمايزاً عن المنهج الغربي في الاصطلاح على كلمات تعبِّر عن السيرة التاريخية لمفهوم المصطلح المتأثِّر بما أفرزه المجتمع الغربي من إحلال عبادة مفهوم الدولة موضع عبادة الإله وتقديم الولاء للدولة على أيّ ولاءٍ آخر حتى لوكان للدين، وفصل العلاقة السياسية عن العلاقة الدينية ومحاولة إخراج الحياة من تقدير الله سبحانه وتصريفه، وصبغ الوجود الديني بطابع النسبة والذاتية، وإعلاء العقل على المفاهيم الدينية كلها وهكذا[1]، وكان هذا الأمر نتيجة طبيعية لما عاناه الغرب من صراعٍ مرير لقرون مع الكنيسة وسلطاتها الواسعة - آنذاك - وماتحمله من تسلط ومفاهيم منحرفة عن الدين، وما ارتكبته ضدّ الإنسان الغربي من ظلم واستبداد، فكانت الثورة على الكنيسة وسلطاتها ومفاهيمها كلها دون استثناء، وعن طريقها كانت ثورة على كل ما هو ديني والمفاهيم الدينية، فكانت ثورةً أيضاً على مصطلحات الدينية، فوضِعَتْ مصطلحات تعبِّر عن هذا الاتجاه اللاديني وخاصة بعد الثورة الفرنسيّة، لكنْ هنا لا يستلزم اللوم الكثير في هذا المجال، ولاسيّما إذا وضعنا القول والعمل في سياقه التاريخيّ والمعرفيّ، فما حصل في الغرب هو نتيجة طبيعية لطغيان الكنيسة ومفاهيمها المنحرفة[2].

---

(١) أحمد محمود السيد: **المصطلحات السياسية دراسة دلالية مقارنة**/ ضمن تقرير ارتيادي (استراتيجي) صادر من مجلة البيان تحت عنوان (مستقبل العالم الإسلامي) تحديات في عالم متغيّر، الرياض، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ١٦٣.

وأنور الجندي: **الإسلام والحضارة**. المكتبة العصرية، صيدا - لبنان، د.ط، د.س، ٩٢ و٢٢٠.

(٢) عبد الكريم بكّار: **من أجل انطلاقة حضاريّة شاملة**. دار القلم، دمشق - سوريا، ط٢، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ٤١.

ومحمد البهي: **الفكر الإسلامي وصلته بالإستعمار الغربي**. مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٤٢٨هـ /٢٠٠٧م، ٢٤٣.

لكن الفكر اللاديني الجديد هذا كان فكراً منحرِفاً أيضاً حين جعل فكر الإنسان أكبر قيمة حضاريّة، وعقله المصدر الأوحد للتصوّرات والنظريات والمذهبيّات التي تنشأ المنهجيّات للقيادة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، واعتمادها مصادر الفكر الفلسفيّ اليونانيّ القائم على إحلال خطاب العقل الإنساني مكان الخطاب الإلهي، والعناصر الرومانية القائمة على عبادة القوة والجنس، مع حركة الإلحاد الماديّ التي نتجتْ من خلال صراع الكنيسة مع التحوّلات الاجتماعية، وكلّها بقيادة غير خفيّة من اليهودية العالمية وسعيها نحو استعباد الشعوب جميعاً[1].

وبما أنّ مسألة المصطلحات والتعامل معها يستند إلى معتقد الأمّة ورؤيتها، فرؤية الأمّة الإسلامية لها هي منبثقة من مفاهيم الإسلام المستمدّة من القرآن والسنة، على أنّنا لا ننسى أنّ المصطلحات والاصطلاح هي أطر لغويّة تحمل رؤى المخاطِب، وخطاب القرآن واضح في الوسطيّة بين موضوعيّة اللغة وذاتيته، فخطاب القرآن - وبالتالي مصطلحاته أو مفرداته - تحمل مضامين أخلاقية وعاطفية، بما يجعلها حاملة لرسالة أخلاقية ورؤية إيمانية، وفي الوقت نفسه يخاطب ذات الإنسان ووجدانه، مع أنّه خطاب عام يستند إلى الواقع المعاش بحيث يضمّن كل دالٍّ بمدلول له، على عكس الرؤية الغربية التي تخبطتْ بين الفلسفة الوضعيّة المنطقيّة الضيّقة التي لا تقبل إلا الواقع المحسوس الملموس ولاترضى إلا به دون الالتفات إلى حواس الإنسان وإدراكه للأشياء، جاعلة من الدالّ المحور الأساس في التعبير بحيث يتطابق مع الواقع تطابقاً جبريّاً. حيث أصبح الدالّ سلعةً وشيئاً ماديّاً بحتاً، وبالمقابل ظهر اتجاه آخر هي لغةٌ ذاتية مغرقة في الذاتية مكتفية بذاتها، لا تشير إلى عالم الأشياء، حتّى أصبح مثل هذه اللغة لغةً نخبويّة أكثر من كونها لغة عامة[2].

---

(١) محسن عبد الحميد: **من المنظومة الغربية إلى المنظومة الإسلامية**. شركة الرَشَد للطباعة والنشر المحدودة، بغداد، د.ط، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م. ٤.

(٢) عبد الوهاب المسيري: **اللغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود**. دار الشروق، القاهرة، ط٢، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م. ١٤٤.

من هنا، فإنّ ارتباط الدال بسياقه الحضاري الذي نشأ فيه ومحدودية حقله الدلالي، ومن ثم قصوره عن الإخبار بمدلوله حين ينقل من حضارةٍ إلى أخرى، كلّ ذلك مدعاةٌ إلى التمايز ومن ثمّ المفاصلة بين حضارتين، انفصلتا فكراً ومفهوماً ومعتقداً وسلوكاً، حتى لو أنّنا لم نشأْ الإنفصال فإنّ الانفصال والتمايز أمر واقع لا محالة (هذا إذا أردنا أنْ نحتفظ بكامل فكرنا وفهمنا ومعتقدنا وسلوكنا).

المطلب الرابع: الحاجة إلى المصطلحات غير الإسلامية

◈ التواصل المعرفي بين المصطلحات

لا بدّ أنْ نستطرد في مجال الحاجة إلى المصطلحات غير الإسلامية، بعد حديثنا عن التمايز بين مصطلحاتنا الإسلامية وغيرها من المصطلحات، حتّى لا يفهم من سياق الكلام أنّنا قصدنا الرفض التام والكامل لكل ما هو غير إسلامي حتّى لو كان مفيداً نافعاً مباحاً مشاعاً استعماله.

فإنّ مما لا شكّ فيه أنْ التأثير والتأثُّر بين اللغات قانون اجتماعيّ إنسانيّ، وإنّ اقتراض بعض اللغات من بعض ظاهرة إنسانيّة [1]. والعربية ليستْ بدعاً من اللغات، باعتبارها لغةً نشطةً وحركيّة في تعابيرها ورشيقة في ألفاظها، وغنيّة في طريقة اصطلاحها للألفاظ وكسبها وصيرورتها عربية الوزن والمأخذ، ولاشكّ في أنّ انتشار الإسلام بسبب الفتوحات، واحتكاك العرب بالأعاجم عن طريق التجارة أوالترحال، ودخول غير العرب إلى الإسلام، وانتشار الترجمة فيما بعد، كلّها عوامل ساعدتْ على دخول الألفاظ الأعجميّة إلى العربيّة، وطرحت منذ وقت مبكر إشكاليّة التعامل مع المصطلح الوافد[2].

فالمصطلحات كما أنّها رسائل فكرية موجّهة، فهي أيضاً وسائل للتفاهم بأقصر طريق وأوضح دلالة وأقلّ مجهود، فهي أدوات للتواصل والتعبير عما تحمله من مفاهيم يتصوّرها الإنسان منها في تدينه وردود أفعاله[3].

---

(١) صبحي الصالح: **دراسات في فقه اللغة**. ٣١٥.

(٢) سعيد شبار: **المصطلح خيار لغوي.. وسمة حضارية**. ٧٩.

(٣) حمدي عبيد: **المصطلح وإشكاليّة الاصطلاح/ مقدمة منهجيّة في فقه الاصطلاح وعلاج إشكالاته على ضوء منهج أهل السنة والجماعة**. مجلة البيان، الرياض، العدد ١٤٠، ١١٢.

وبما أنّ الحضارة هي تراث الأمّة أو الجماعة على وجه الخصوص، الذي يميّزها عن الجماعات والأمم الأخرى[1]. وبما أنّ الحضارة الإسلامية تتمتع بتلك الخصوصيّة التي تميّزها عن الحضارات الأخرى، وذلك بالتزام المرجعيّة الإسلامية العليا (الكتاب والسنة)، والسنن الربانية التي يقوم الكون على أسسها، والحقائق التاريخية الثابتة، وفقه الواقع المعاصر. فمعرفتنا بهذه المرتكزات عن الحضارة الإسلامية نصل إلى معرفة طبيعة العلاقة بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى[2]، مما يجعل للحوار بين الحضارة الإسلامية واضحة الرؤية ضمن أهداف الحوار الحضاري في المفهوم الإسلامي وهي: -

١- الوصول إلى الحق والرضى به، لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٤٢]، والحقُّ ما رضي به الشرع وأيّده الحق تعالى في وحيه[3]. وما التبس من الباطل في مفاهيم ومصطلحات الحضارات غير الإسلامية يعتبر مقتل الداء.

٢- إعلاء كلمة الحق على الباطل، بإعلاء مفاهيم الحق ومصطلحاته المعبِّرة عن مرتكزات الحضارة الإسلامية وأهدافه المجيدة.

٣- دعوة العالم إلى قِيَم الحق العليا، والتي يصطلح عليها بما يحقق مصالح العباد ويزكّيهم ويهديهم إلى سبيل الرشاد[4].

٤- المعذرة إلى الله في أداء الأمانة والشهادة على الخلق تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

---

(١) محمد محمد حسين: **الإسلام والحضارة الغربية**. دار الرسالة، مكة المكرمة، ط ٩، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م. ٦.

(٢) موسى إبراهيم الإبراهيم: **حوار الحضارات وطبيعة الصراع بين الحق والباطل**. دار الاعلام، عمان، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م. ٢١٠.

(٣) موسى إبراهيم الإبراهيم: **حوار الحضارات وطبيعة الصراع بين الحق والباطل**. ٢١١.

(٤) المصدر نفسه. ٢١٣.

٥- إظهار سماحة الإسلام وتقبله لرأي الآخر، بعدم إكراه غير المسلم بالاصطلاح على ما جاء به الإسلام، تحقيقاً للمفاصلة التامّة بين الحضارتين وبين الرؤيتين[١]. فالمفاصلة المقصودة عدم الذوبان والانصهار في الآخر وحضارته وفكره مما يولد هجيناً بل مسخاً من الأفكار التي لا تنتمي إلى الارادة الربانية في شيء.

وعلى هذه الأسس فالخلاف والتغاير بين البشر سنةٌ ربانية كونية، ولقاء الحضارات سنةٌ ربانية أيضاً، بما يولِّد حواراً بين الحضارت وتفاعلاً بما لا يمسّ ثوابت الإسلام.

وللإسلام في علاقته بالحضارات الأخرى منهج متميّز، فهو يفرِّق بين ما هو مشترك إنسانيّ عام، وبين ما هو خصوصيّة حضارية تختصّ به الأمّة بحسب دينها وثوابتها وهويّتها الفكرية والتربوية والأخلاقية[٢]، والأصل فيها محافظة الأمّة عليها وعدم التفريط فيها، ومن ثمّ فإنّ صراع الحضارات وسنّة التدافع بين الحق المتمثِّل بالحضارة الإسلامية وبين الباطل وما التبس به من غير الحضارة الإسلامية حقيقة واقعة، والصراع المصطلحيّ والمفاهيمي هو حقيقة واقعة أيضاً، فمثلاً الصراع بين مصطلح (الشورى) ومصطلح (الديمقراطية)، ومصطلح «الدين والدنيا» مع مصطلح (العلمانية)، وهكذا فالضدّان لا يجتمعان، وحتميّة التدافع يستلزم تطبيق أحدهما بوجوب مزاحمة الآخر وطرده ودفعه وإزالته[٣].

فلا بدّ لنا في أيّ حوارٍ يدار بيننا وبين غيرنا أنْ نلتزم بمفاهيمنا عبر مصطلحاتنا وتعابيرنا؛ لأنّ حتميّة الدفع والإزالة لمصطلحاتنا ومفاهيمنا مؤكدة عند غيرنا وهو يريد الإخلال بتلك المفاهيم والمصطلحات واستبدالها بما يتوفر لديه من أوعية (مصطلحات) لمفاهيم مغايرة لما لدينا[٤].

---

(١) المصدر نفسه. ٩٣ و٢١٥.

(٢) المصدر نفسه. ٢١٨.

(٣) عبد الكريم زيدان: **السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية**. دار إحسان، طهران، ط١، ١٤١٣هـ/٢٠٠٣م، ٤٦.

(٤) محمد عمارة: **حرب المصطلحات بين الإسلام والغرب**. ٣.

وللحوار الحضاريّ ضوابط تستلزم منا معرفة الآخر على حقيقته بواقعيّة وتجرّد وأمثل طريقة لذلك معرفة مصطلحاته وسيرتها وتكوينها الدلالي والمفهومي؛ لأنّ المصطلحات هي المفاتيح للعلوم وبالتالي لمعرفة حضارة ما والتعرّف عليها[1]. ولايتم كل ذلك إلا من خلال تحديد المصطلحات بدقّة، لنعرف ما يراد من هذا الحوار وحتّى لا نصاب بما يسمى (حوار الطرشان)[2].

◈ هل نحن بحاجة إلى مصطلحات غيرنا:-

إنّ حاجتنا إلى مصطلحات غيرنا يحدِّدها نظرتنا إلى حضارة غيرنا وكيفية التعامل معها بعد أنْ عرضنا الأسس المختلفة والأهداف التي تقوم عليها المنظومة الحضارية الإسلاميّة مع المنظومة الحضاريّة غير الإسلامية، إن حاجتنا إلى المصطلحات غير الإسلامية تحدِّده حاجتنا إلى حضارة غير إسلامية.

وقد ذهب العديد من الدراسين في مجال الحضارة أنّنا بحاجة إلى الغرب في المجال التقني والعلم البحت على الأقلّ؛ نظراً لتطورهم في هذا المجال، فلا بأس بالأخذ من الحضارة الغربية فيما نفتقر إليه، لكن يبقى هنا سؤال مهم هل صحيح أن تجريديّة العلوم التطبيقيّة يعفينا من مسؤوليّة الكشف والتحديد للمصطلحات ودراستها وكشف ظلال المعاني التي تحملها مصطلحاتهم التي تعبِّر عن أفكارهم؟!؛ ذلك لأنّ كلّ علم خاص بالغرب أو سبقوا إليه قبلنا يجب أنْ يحمل نوايا وأهداف هؤلاء في تأسيسه وتطويره، فالغرب طوَّر الذرة كعلم فيزيائي، لكنّه كان هدفه تدمير البشر، إذن حتّى العلوم التجريبية الهدف منها يحدّد اتجاه المسار الذي ستتخذه العلوم والتقنيات معتمدةً في ذلك على نتاج مجموعة سمات تلك الحضارة في المجالات العقدية والفكرية، والثقافية والمنهجية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية،

---

(١) موسى إبراهيم الإبراهيم: **حوار الحضارات وطبيعة الصراع بين الحق والباطل**. ٢٣٧.

(٢) ونعني بـــ(حوار الطرشان) أي الذين يعلون أصواتهم دون معرفة بما يقوله كل منهم.

انظر: نصر محمد عارف: "**الحضارة- الثقافة- المدنية" دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم**. ٦٣.

وموسى إبراهيم الإبراهيم: **حوار الحضارات وطبيعة الصراع بين الحق والباطل**. ٢٤٢.

مضافاً إليها عوامل المناخ والجغرافية، أي ثمّة محصّلة تخرج من جِماع جوانب الحضارة المحدّدة[1]. وهنا يجب التفريق بين ما ذكرناه في العلوم والتقنيّات، وبين القوانين العلمية التي لا خلاف عليها إلا بقدر جدارتها في حمل هذا الإسم أو بقدر نسبيتها، مما يسمح بالقول إنّ انتقالها من حضارة إلى أخرى أمرٌ مشروعٌ - وبالتالي مصطلحاتها ومفرداتها -، فلا تقوم في وجهه الحواجز إلامن قبل الذين يريدون احتكار العلوم والتقنيّات[2].

لكن في مجال تسمية الأشياء كان القرآن الكريم مرِناً في اتخاذ كلماتٍ وأسماء أعجميّة بعد أنْ صاغها صياغةً عربيّة أمثال كلمات (سندس، استبرق، قرطاس،.. وغيرها)، على حسب الرأيّ القائل بوجود كلمات أعجميّة معرّبة في القرآن الكريم رغم أنّ أكثر أهل العلم يعارضون هذا المذهب.

لكن الفكر الإسلامي حين ورد إليه ألفاظ أعجميّة في ما مضى من القرون عرَّبها لحين إنشاء ووضع مصطلحٍ يلائم معنى ودلالة وسياق المصطلح الذي ورد فيه في لغته الأصليّة[3]، رغم أنّ الاقتباس من لغة الغير والتعامل الجديد مع المصطلحات غير الإسلامية فرضه أمر واقع في العصر الحاضر والذي يتمثّل في اعتناق العالم الإسلامي للشكل المؤسّسي الغربي وبالخصوص شكل الدولة الوطنيّة الحديثة[4]، وكلّ هذا نتيجة الشعور بالاستلاب

---

(١) منير شفيق: **الإسلام في معركة الحضارة**. الناشر للطباعة والنشر والتوزيع، ودار البراق للنشر، بيروت - تونس، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ٢٤.

(٢) المصدر نفسه، ٢٥.

(٣) وهذا حاصل في مجال التقابل المصطلحي وهو يعني "علاقة بين شيئين أحدهما مواجه للآخر بين متحركين يقتربان سوية من نقطة واحدة أو يبتعدان عنها" فالعقيدة مقابل الأيديولوجيا والشورى مقابل الديمقراطية والأدب الإسلامي مقابل الأدب الجاهلي وهكذا.
انظر: محمد أمهاوش: **قضايا المصطلح في الأدب الإسلامي الحديث**. ٢٥١ وما بعدها. وأميل يعقوب وزميلاه: **قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية**. ١٤٢. وجميل صليبا: **المعجم الفلسفي**. الجزء الثاني، ٣١٨.

(٤) عبد السلام المسدي وآخرون: **تأسيس القضية الاصطلاحية**. ١٨٨. وإدريس نقوري: **مدخل إلى علم مصطلح**. ١٩.

الحضاري، والتبعيّة الحضارية والثقافية للغرب وفكره ورؤيته، أي إنّ أيّ اقتباس من الغرب في العصر الحاضر يختلف كليّاً عن الاقتباس الذي جرى في العصور السابقة، وبخاصة في العصر العباسيّ؛ ذلك لأنّ أسلافنا عندما واجهوا الحضارات الأخرى، كانت مذهبيتهم الإسلامية تسيطر على حياتهم وتوجّه حضارتهم، وكانت دولتهم أقوى الدول، ونحن اليوم بعكس أسلافنا كياننا السياسيّ الإسلامي ممزّق وحضارتنا الإسلامية قد سقطتْ منذ زمن بعيد، ثم إنّ المصطلحات التي نواجهها اليوم تختلف اختلافاً كبيراً عن المصطلحات التي واجهها اسلافنا؛ لأنّ المصطلحات في عصرنا ليستْ ألفاظاً لغوية أو أوصافاً لعلمٍ من الأعلام، وإنّما هي مصطلحات تكمن وراءها منظومة حضارية تختلف في مقدماتها ونتائجها عن منظومتنا الحضارية ونمطها الاجتماعي[1].

لكنّ حقيقة الاستلاب الحضاري تكمن في الدعوة إلى استعارة لغة الآخر ومصطلحه ومفردات خطابه وجعل ذلك شرطاً لازماً للنهوض الحضاريّ، ويشهد على زيف هذه الدعوة ما شهدته التجربة اليابانية والصينية من تفوّق وتنمية شاملة، دفعتْ بهما إلى مصاف الدول العملاقة؛ لأنّ أجواء التحدّي تصنع الإبداع، فقد أفاق اليابانيّون- ومثلهم الصينيون- بعد الحرب العالمية (الغربية) الثانية، فاندفعوا لبناء نهضة ذاتية قائمة على خصوصيّات المجتمع الياباني فيما يتعلق بلغة التعليم، حيث لم يستعِرْ اليابانيون لغة الغرب، ولكن تمّ الاعتماد كليّاً على اللغة اليابانية رغم صعوبتها التي يكاد ألا يتصوّرها أيّ منا ممن لم يحط به علماً[2]. فالفرق بيننا (نحن المسلمون) وبين اليابان- من حيث الموقف من الغرب- جوهري للغاية، فنحن زبائن لدى الغرب، أما اليابانيون فتلاميذٌ لديه، وفرقٌ كبير

---

(١) محسن عبد الحميد: **المذهبيّة الإسلامية والتغيير الحضاري**. ٩١ وما بعدها.

(٢) أحمد محمد الدغشي: **إشكاليّة المصطلحات من المنظور الحضاري**. مجلة البيان، الرياض، العـــدد ١٦٦، ١٢٧.

وانظر في تفصيل ذلك إلى كتاب: السامرائي، د. نعمان عبدالرزاق: **في أعماق التجربة اليابانية**. دار الحكمة، لندن، ط١، ٢٠٠٠م.

بين الزبون والتلميذ؛ فالزبون يشتري أما التلميذ فيتعلم[1]. فنحن نتعامل مع الغرب ومصطلحاته كشراء سلعة (وهي المصطلح) دون أن نتعلم كيف نصنعه ونحن لدينا مقومات صناعتها بحيث تكون أفضل بكثير مما لدى الغرب.

(١) عبد الله بن فهد النفيسي: **على صهوة الكلمة**. د.ن، الكويت، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩٠م، ٣.
لكننا في خضم هذا النقاش حول الحاجة إلى مصطلحات غيرنا يستصحب الحاجة إلى الحفاظ على الخصوصية الثقافية والحضارية التي سنتكلم عنها فيما بعد.. لكن يجب أن نسجل هنا رأياً جديراً بالالتفات حين يقول: "لا تعني الخصوصية الثقافية القطيعة الحضارية مع الثقافات الأخرى، فهذه خصوصية حاصرة لا دافعة، كما لا يعني الانفتاح المطلوب على الحضارات مجرّد المحاكاة المتطلبة لنكران التراث النافع في مقابل الأخذ بأسباب المعاصرة والحداثة. هذا الموقف يعبّر عن صراع مصطنع بين الأصالة والمعاصرة، لا ينبغي الاستسلام له من منطلق تناقض المفهومين وادِّعاء تعذُّر اجتماعهما في مسيرة حضارية واحدة في ضوء الخصوصية الدافعة وليست الحاصرة".
انظر: علي بن إبراهيم النملة: **إشكالية المصطلح في الفكر العربي/ الاضطراب في النقل المعاصر للمفهومات**. ١١٨.